أثر الماركسية

في الادب

حليم سري

احب بعد ان طرقت هذه الابواب في الاشتراكية ومذاهبها مما قد يقره العقل الاجتماعي الحديث او لا يقره ، أن أعرض للبحث الاساسي المقصود به هذا المقال وهو علاقة الماركسية بالادب . فاذا استعرضنا بعض النتائج التاريخية والحركات الفاصلة في تاريخ الاجتماع وجدنا ان الفكر السياسي في اوربا كان قد تطوّر نحو اتجاهات عديدة في الفترة التي استقرت فيها الحال بعد الحروب الثورية في القرن الثامن عشر . ولقد كانت المدرسة الفلسفية الذائعة الصيت إبان ذلك تلك التي قامت على فلسفة « هيجل » وتزعمها « هيجل » نفسه والتي قامت ايضاً من قبله على اكتاف « كانت » الفيلسوف الكبير ومن قبله أستاذ فيلسوف الطبيعة « روسو »

ان كثيراً من تعاليم ماركس بل اشتراكيته نفسها في مظهرها ، يعود الى « هيجل » . فقد كان نجاح « هيجل » كفيلسوف يعود الى تقديسه « الفكرة » التي اعتبر المادة لها اثراً . وأما ماركس فقد أخذ هذه النظرية وقلبها رأساً على عقب وكان باعثه في ذلك النحو من الرأي ان الفكرة في ذاتها لا تقترن الى « عنصر المادة » في بناء الجمعية الانسانية ، وانشأ على هذا الاساس نظريته الاجتماعية : « Materialist Conception of History » « النظرية المادية للتاريخ »

والآن دعنا نبدأ « بماركس وانجلز » ونرى مدى ما قصد به الادب والفن في مذهب « المادية الجدلية » « Dialectical Materialism » او الفلسفة الجدلية أو المنطقية — اذا صح هذا التعبير — . فقد اعتبر ماركس وانجلز ان وجود المجتمع الانساني في أية مملكة وفي أي جيل متوقف على وسائل الانتاج وقد يتهيأ للمجتمع فضلاً عن ذلك « كفايات عليا » كالسياسة والقانون والدين والفلسفة والادب والفن . واستطيع بغير تحرج ان نطلق على هذه الكفايات « مظاهر النشاط » وهي لا تجتمع كلها في المعاني الاقتصادية وانما من شأنها أن تكوّن بطرق مباشرة أو غير مباشرة « التناسق الاجتماعي » وهي تمتد الى مختلف المرافق العامة كل منها في

اتجاهه الخاص على انها ترتبط في نظام واحد لانها تعمل متضافرة كما انها ترتكز على الحياة الاقتصادية . وإذن فلا يجوز ان يقال ان الحالة الاقتصادية هي وحدها الاثر الفعال وما عداها فلا يعتد به . فقد يتاح مثلاً لطابع اي عصر من « العصور الفنية » ان تؤثر حيويته في « نظام » ذلك العصر بصفة عامة وفي نواحيه الاقتصادية بصفة خاصة . . . لم يحاول « ماركس » أو « انجلز » إقامة مذاهب اجتماعية اقتصادية لكي يستطيعا بها تحديد « المنزلة الفنية للاجتماع » فقد نشأ كلاهما في مغرب أيام « جيته » الشاعر الالماني العظيم قبل ان ينتهي العصر الذهبي للأدب الالماني . ولقد حاول « ماركس » وانجلز ان يطرقا أبواب الشعر في صدر شبابهما بل لقد اندفعا في غمار الحياة الخيالية واستطاعا أن يلذا بها شأواً بعيداً بل استطاعا ان يكونا ناقدين لم تقبل عقليتهما هضم ما كان يكتبه « أوجين سو » في مؤلفه « العائلة المقدسة » عن طرق العلاج لبؤس الطبقات المتوسطة في المجتمع . بل لقد نددا « بفردريك فريليجرات » الذي هجر عصبة الاشتراكيين وارتد وطنيًّا في عام ١٨٧٠ وكذلك أنحى ماركس باللائمة على « هنريش هيني » عند ما ظن ان هذا الاخير قد أنحى خوفاً أمام اصحاب السلطة عندما كتب « تعبيرات الزهد » في وصيته . وهذا ثابت من رسالة ماركس الى انجلز في ديسمبر ١٨٦٦ مع ان ابنة ماركس تقرر أن والدها كان يحب « هيني » بقدر ما كان يتغاضى عن إخفاقه السياسي . ولقد كان ماركس يقول ان الشعراء قد يكونون عباقرة أذا ما تركوا في سبيلهم احراراً فليس من المفروض اساساً أن نضعهم في المستوى العادي الذي نضع فيه سواد الناس .

لم يكن من مميزات ماركس وانجلز الحكم على الآداب — آداب السمو والقوة — في حدود اتجاهاتها السياسية . فلقد طالما انذر ماركس روائيي الاشتراكية بما ينجم من خطر عن الآداب الغامضة التي قد تؤدي نتائجها الى اغراض غير صريحة . ولقد كتب الى « م . كوتسكي » يقول لها عن احد مؤلفاتها ان شخص البطل والبطلة في قصتها قد ذابا في المبادىء التي يمثلانها ويقول لها لقد انحدرت بعض جوانب تلك القصة لابراز نظرياتك الى المجتمع على أني أرى أن الاتجاه يجب ان يصدر عن الحوار والحركة دون ان يركزا في مذاهب اجتماعية او نظريات علمية وانه ليس على الشاعر ان يطلع على القارىء بحل ما يختتم به نهاية النزاع الذي يسرده »

ولقد أرسل « فرديناند لاسال » مأساته الشعرية « فرانز فون سيكنجن » الى ماركس وانجلز يدعوهما الى نقدها . فكتب اليه ماركس يقول « اذا تركت جانباً أي فكرة تعرض لي عن نقد هذا المجهود الأدبي فان قراءتي الأولى لتلك الدرة الثمينة قد أثرت فيّ التأثير كله وطبيعي أن يثير مثل هذا الادب كل ذي وجدان » . أما انجلز فقد قال انه قد قرأها مثنى وثلاث ومن فرط اعجابه بها وضعها جانباً مناً . لا في وسعي ان تمليه عليه مواضعها من نقد . . . » ولقد

تحدثا في هذا عندما كانا يدفعان بنفسيهما الى المحيط الادبي لكي يطلّا على الانتاج الفكري ويقضيان بصدده ما يعن لهما من ملاحظات . ولا عجب في عصرها بلغت « الدراما » مكانة رفيعة ولقد أمكنهما ان يبينا كيف ان مكانة « لاسال » السياسية جعلته يخطىء فهم الدور الذي لعبهُ بطل مأساته . أما « شاكسبير » فقد كان « ماركس » يكلف بآثاره الادبية والشعرية كلفاً شديداً . فكان يحفظ شعره عن ظهر قلب . وكان مشغوفاً بكتابة مذكرات عنهُ . ولكن لم يحاول ان يخرج منها بأية فكرة عن الاشتراكية

ولقد كتب ماركس مبيناً مدى العلاقة بين الفن والنظام الاجتماعي فأشار في مقدمته لنقد « الاقتصاد السياسي » الى ان في بعض العصور التي شارف فيها الفن المثل الاعلى لم يكن لهُ ثمة أتصال بالتقدم الاجتماعي . بل لم يكن لهُ صلة بالقواعد المادية التي يقوم عليها نظام الاجتماع . ولم يكن ماركس او انجلز ممن يتخذون الفن سلاحاً . « Art as weapon » بل كانا يأثران بالمثل الاعلى للعقلية التي تشترك في مناحي كثيرة للعلوم والمعرفة فلم يحبذا التخصص في احد العلوم او الفنون بل كانا يقدران شخص ذلك العالم الذي قام في أيام « النهضة الاوربية » Renaissance والذي كان موسوعي الثقافة

وهذا « ليوناردو » كان مصوراً ورياضيًّا وعالماً مهندسًا . ودونك « ميكافيلي » فقد كان شاعراً ومؤرخاً وسياسيًّا ماهراً . كان هذان الرجلان اذن يمثلان تلك النظرية التثقيفية قبل أن يكون لتقسيم العمل « Division of Labour » هذا التحديد لطبيعة العقل وعمومه وقبل ان يُفرض على كل انسان عمل خاص . على اننا اذا ما نظرنا الى « لينين » مثلاً وجدنا أنفسنا أمام شخصية مثقفة مجربة وانما نجد أيضاً ان ماركس خصّ نفسه بشيئين « التنظيم والكفاح » ولقد كان كمعظم الروسيين — يعشق الموسيقى . ويتحدث عنهُ جوركي فيقول « لقد كان يستمع ألحان بتهوفن فيؤثر سماعها كل يوم على أي شيء ويعبر عن احساسه نحوها فيقول . تلك هي الموسيقى التي ترتفع عن عواطف البشر واني لأذكر بفخر ما يصل اليه سمو العاطفة وجلال الالهام بل ما يصل اليه العقل . حتى اني لا أستمرىء سماع الموسيقى كثيراً . فهي تؤثر في أعصابك وتجعلك اما متبرماً ساخطاً . او فرحاً راضياً على ان ينتهي هذا التبرم او السخط وذلك الفرح والرضاء الى الاعجاب بأولئك الذين يخرجون الى العالم درراً وفرائد ويعيشون في وادي الجحيم »

ولقد كان لينين مشغوفاً بالقصة والشعر والتمثيل وكان ذا نزعة خاصة في تذوق الفنون الرفيعة ولقد قال ذات مرة في أثناء حديث لهُ في احدى ندوات الشباب : ماذا تقرأون ؟ أتقرأون بوشكين ؟ ؟ — لا . لا . انهُ كان كاتباً من كتاب العامة . وانما نحن نجل « مايكوفسكي » . فيبتسم أحد الموجودين ويقول : اني لا أظن ان « بوشكين » يفوقهُ كثيراً

وكان لينين يمجد « تولستوي » وكثيراً ما كان يقرأ كتابه « السلم والحرب » ولقد قال لينين عن تولستوي ان عبقريته منقطعة النظير وانهُ الفنان الذي يجب أن يتخذ مثلاً أعلى . ولقد كان لينين يكتب عنهُ مسالماً نواحي عبقريته كما كان « إنجلز » يجلل قصبة الشاعر الالماني « جيته » وان كان قد عرّض بعدم مقاومته وبتصوفه. وقد كانت فكرة لينين عن جوركي كفكرة ماركس عن « هيني » وكان يقترح في بعض رسائله ان يكون جوركي كاتباً صحافيًّا يدعو للبلشفية . . . على ألاّ يكون من وراء هذا تحطيم زعته الادبية العالية . . . وجوركي هذا الذي يعنيه لينين لم يستطع احتمال استبداده ودسائس انصاره فهاجر الى أوربا تاركاً منصبه في حكومة الروسيا وقد كان فيها مديراً للفنون الجميلة

ان لينين يمثل تلك « الطوبى » التي تخيلها « ماركس » عن « الاشتراكي المكافح » فقد كان دائم الجلاد والعمل ليصل بأصحاب « الايدي العاملة » الى مركز الحكم . ولقد كانت نظريات « كارل ماركس » انجيلاً يستنير به في حياته الاجتماعية بل كانت الحافز الذي دفع بلينين الى ان يعتنق تلك الفلسفة الجديدة في الاجتماع حتى أتيح لهُ ان يصل الى تمزيق النظام (الرأسمالي). ولقد كان لهُ ان يحذق تلك الاساليب المختلفة التي يحتاج اليها الهدم والبناء وكانت نظريتهُ ان المبادىء شيء والاعمال شيء آخر وان القائد يجب أن « يجرب » لكي يصل الى خير الوسائل والطرق وبذلك ينتهي الى ما يطمع في الوصول اليه . ومما قرب للينين الطريق ما في خلقه من حزم وأستهتار وبوهيمية

لقد عرف هذا الرجل كيف يسبر غور النفس الانسانية وكيف يختار الرجال ويدرس أوساطهم وبواعثهم النفسية . واستطاع ان يسخّر المجتمع رجالاً ونساء لخدمة اغراضه التي تنحصر في ان الحكومة يجب ان تسودها الطبقات العاملة (Proleterians) وهذا الرجل الذي كان يعمل بآراء ماركس في الحكم كان يبشر بهذه الآراء ذاتها في الادب والثقافة وكان من رأيه ان يكون الادب خادماً للحياة وان يكون وسيلة فعّالة من وسائل التقدم الاجتماعي . واذا كانت الحرية غاية في ذاتها فتحرير الفكر من أسر التقاليد هو « الغاية » التي يجب ان يسعى اليها الادب

أما « تروتسكي » فكان أديباً يفضل على لينين . أخرج عام ١٩٢٤ دراسة سماها عن « الادب والثورة » عالج فيها المشاكل التي تعرض لها الكتّاب الروسيون وعن علاقاتها بالمجتمع الجديد الذي يعتبر وليداً للثورة . ولقد تعرّض في بحثه لاشياء لم يتعرض لها ماركس وأنجلز من موضوعات تختص بالنقد الادبي تحدث فيه عن قيمة الادب ورسالته في الحياة . لقد قدر تروتسكي منزلة « شكسبير واليونان » فليس يحق لكائن من كان ان يثير غباراً على هذه الآثار الخالدة الحية . ولقد كان هذا رأيهُ بينما الكتّاب الروسيون كانوا يتساءلون عن منزلة الادب

والفن في عصور الانحطاط الدكتاتوري او الحرية الاشتراكية . وما هي الثقافة التي للطبقات العاملة التي عنها نشأت الاشتراكية . وهل تكون هنالك آداب شعبية جديدة في أساليب جديدة تمثل عواطف وآراء تلك الدكتاتورية الشعبية ؟ لقد كان في روسيا جماعة أطلقوا على انفسهم « البروليكلت » رغبت تلك الجماعة في ان تحتكر الاشراف على الآداب السوفيتية . على ان لينين بدأ في معارضة المشروع بحجة ان الآداب الشعبية شيء لا يقوم على قوة السياسة او استغلال الآراء السياسية وانما يقوم على التطور الطبيعي القائم على المعرفة والعلم والتي جاهد من أجلهما الشعب تحت ضغط رأسمالية الاشراف والحكام . ولقد زعم تروتسكي في كتابه « الادب والثورة » ان الآداب الشعبية والثقافة الشعبية تنتهي الى نتيجة خطيرة في التكوين العلمي لعقلية الشعب اذا استمرت ، إذ تجمع خطأ ثقافة المستقبل في الحيز الضيق لحالتنا الاجتماعية الحاضرة . وانما نفهم من « ماركسيته » اتجاه التأثيرات الخاصة بالادب القومي الذي يدعو الى الحرية والبعد عن تأثيرات اصحاب السلطة . ولقد قدر تروتسكي أولئك الكتاب والشعراء والروائيين الذين الهتهم الحياة كثيراً من دروسها وعرفوا مدى ما ينتهي اليه تفكيرهم من بحث الازمات الاقتصادية . . . وهو مع هذا لم يكن يؤمن بالادب الشعبي الذي حل محل الادب « البرجوازي » . فلقد نما ادب الثورة الفرنسية البرجوازي في كنف العهد القديم ولكن روسيا « الامية » لم يكن لها مثل هذا الخط من الثقافة وقد لا يحتمل ان تتمتع به في المستقبل لان الدكتاتورية الشعبية لم تكن الا فترة انتقال قصد بها إيجاد فكرة انسانية عظيمة . فالشيوعية لم يكن لها حتى اليوم ثقافة فنية ولكن كان لها ثقافة سياسية ! ! . ويقول تروتسكي — لم يكن من السهل ان تطبق مبادىء ماركس على الصور الفنية كما انه من السهل ان نقيس الصور الفنية الى مكانتها من السمو الفني بمقاييس الفن نفسه ! ! . لم يتعود الناس في روسيا ان تشرف الحكومة على الاعمال الادبية والفنية . وكذلك لم تحاول الهيئات الادبية أن تثبت وجودها عن طريق الحكومة . وانما قامت في اوروبا منذ الانقلاب الثوري جماعات أدبية حاولت ان تسيطر على الادب برعاية السلطة حيناً وبدون رعايتها حيناً آخر . ولقد كان تروتسكي بمكانته الرسمية يضاد هذه الجماعات ويناكرها . وكان محبو الادب الروسي يعتقدون أن هذا النوع من الاستقلال بعيد عن الروح الاشتراكي لانه شر محض وان الحكومة لا الادب يفيد كثيراً من هذا الاشراف على الثقافة . وهذا القول بعيد عن جادة الصواب فقد كان الادب « الرومنتيكي » في عهد القيصر يلعب دوراً لم يتح مثله لمن يشبهه في عهود التاريخ كلها . فقد كان النقد الاجتماعي والسياسي والادبي مقيداً عليه بالرقابة . وكان من ألبس النقد يومئذ لباس « الدراما » لكي يظهر في أثواب مسرحية . ولقد تهيأ المسرح يومئذ عهد جليل من عهود التمثيل الفنية في القرن الثامن

عشر بل ان هذا هو السر في قوة تلك القطع الروائية العظيمة التي انتجها عباقرة الكتاب في تلك الفترة منذ عهد بوشكين حتى تولستوي وكان هذا الادب التمثيلي يتسم بالتعريض art of implication ولقد كان يكفي لان يفلت مؤلف « تورجنيف »من يد الرقيب لكي يطرد الرقيب نفسه بل يسجن وكان هذا الموضوع التمثيلي « A Sportsman's Sketches »

ظلت الآداب كالسياسة منذ الثورة في حالة شديدة من التناقض والارتباك . أما بعد الثورة فقد كان المفكرون انفسهم اصحاب قوة ورأي . وكان اندماج الثقافة بالسياسة يومئذ لا يخلو من اخطار وشرور . فعمد لينين وتروتسكي ولوناشارسكي وجوركي الى تحرير الادب من اي دعوة . وكان لهم أن يناهضوا هذا الشعور الفكري الذي وجد في اذهان الشعب منذ عهد القيصر والذي كان يعتبر الفن سلاحاً للدعوة . وكان لينين لهذا يفيد كثيراً من دعاوة الصور المتحركة وكان اول فيلم شاهده الشعب هو « لابنشين » و « بتروفكين » وهو قطعة عظيمة في التعريض والنقد الاجتماعي على نسق الروايات التمثيلية التي مثلت في عهد القيصر . على ان البلاشفة قد أخفقوا بعد موت لينين ونفي تروتسكي في النهوض بهذا النوع من الآداب ولان « ستالين » لم يكن على درجة من الثقافة تعدل تلك التي للينين أو تروتسكي . ولقد خدت حركة النقد المسرحي نفسه لان ذلك الشعب الامي لم يكن ليصل الى تلك الذروة من التفكير

كان جوركي مدافعاً عن حرية القلم بل كان قد أرصد نفسه للدفاع عن حرية الفكر فاليه يرجع هدم « الراب » R. A. P. P. آخر مجهود في الاحتكار الثقافي . ولقد فتح الكنائس والمعاهد السوفيتية لانطاب الكتاب الاجانب وكذلك لكتاب الكلاسيكين وان كان هذا التصرف قد ادى الى تدعيم المظهر الدمقراطي وهيأ مجالاً واسعاً للاطلاع على الآداب والعلوم والفلسفات . وهذه الفترة تفضل كثيراً عهد « ستالين » حيث لا سبيل الى معارضة سياسية او نقد اجتماعي . وفي روسيا تجد السياسة تقرر المصير الاجتماعي ؟ . . واذن ما هو على وجه التحديد موقف المفكرين الروسيين . اولئك الذين يسمون بفلسفة التاريخ او فلسفة الفنون والذين تضعهم في الصدارة اذا ما ذكر ادباء الاجتماع في العالم ! ! ان الموضوعات التي يعرض لها الادب التمثيلي اليوم في الروسيا لا تمت بصلة الى « الميلودرام » ذلك التمثيل القوي الذي يصدر عن العاطفة والمعاني الخلقية . وانما نجد اليوم في الروسيا قصصاً تمثيلية هزيلة تتجه نحو الدعاوة الى اسلوب الحكم الذي يقوم به « ستالين »

ان موسيقى « سكوستاكوفتش » التي لم يتذوقها الجنود كانت دليلاً على اهمال الدمقراطية ومبادئها . وطبيعي ان موت « جوركي » وسجن « بركارين » و « رادك » ازال « الفرملة » التي كانت تحول دون التدهور الفني وبعبارة اخرى التدهور السياسي . ان تمويه الحقائق التاريخية

في عهود ازمات ستالين وتروتسكي قد ادت الى نتائج وهمية حتى ان الحكومة لا تتوانى في ان تضع للناس برنامجاً جديداً يمثل تاريخهم القديم ويصف اخلاقهم . ومثل هذا التصرف لا ينتهي الا بإفساد الحياة العقلية التي تقوم عليها مظاهر الاجتماع وتقديره . على ان هذا كله يقابله العالم اجمع في شيء من الهدوء والابتسام . وعلى هذا النحو فقد دفعت « الماركسية » بنفسها في مأزق حرج او كما يقولون قد اسقطت نفسها في بئر . ونحن قد يخيل الينا ان « السوفيتيين » لم يبق لهم من ماركسيتهم حتى « الثقافة السياسية » في أعنف صورها . وهكذا فقد بعدنا عن تأثير الحرية طالما قد فقدنا إلهامها . واذن الى اي غاية تنتهي قضية « الماركسية والادب » . انا يجب ان نتذرع في هذا البحث بالمنطق السديد وتحكيم العقل واذن فلا ينبغي ان نغفل تلك الآيات الادبية الخالدة التي اخرجها آباء الماركسية . اننا قد نبعد قليلاً عن « تروتسكي » فيما قد قررناه من أحكام ونصرّح بأن « الماركسية » وحدها لا يمكن ان تدلنا على الطيب او الرديء من الانتاج الفني . فقد يكون هنالك « ماركسيٌّ » ممتاز ولكنهُ قد فقد ملكة التخيل او الذوق واذن فهو لا يستطيع ان يفرق بين الغث والسمين في الانتاج الادبي وهذه نتيجة « ايديولوجية » خاصة بتكوين ثقافته

ان دراسة الادب وعلاقته بالاجتماع قديمة جداً قدم « هردر » وفيكو . ولقد سبق « لكولردج » ان تحدث عن تلك العلاقة التي تقوم بين الادب والمجتمع . فقد تبين « قوة » السلطة اليونانية في عهودها التاريخية في ثنايا التعبيرات الادبية اليونانية . كما قد نستطيع ان نلمس « الفردية » الانجليزية في محاورات « تشوسر » . على ان « البرجوازي » الاكبر في هذا السبيل من النقد هو (تين)

ان الكاتب اذا شاء ان يطبق المبادىء والنظريات الماركسية ولا سيّما نظرية ماركس عن « الفلسفة الجدلية » ينبغي ان يدرس الادب الانساني درساً عميقاً . فالشيء الذي يجب ان يتنبه لهُ الكاتبون يتعلق بالمعاني التي ترمي اليها حقائق الادب . ومثل هذه الحقائق لن يصل اليها العقل في يسر وسهولة . فقد لا يستطيع الاديب نفسه اداء هذه المعاني في شيء من التبسط . إما لغموضها وإما لابهامها وإما لرمزيتها . وقد يعاني القارىء شيئاً غير قليل من العسر اذا ما انتهى الى حدّ يخيل اليه انهُ الحقيقة او المعنى الذي اراده الكاتب ؛ وقد يكتفي بما يعثر عليه من آراء اشتراكية تهذيبية . وقد يخطىء اذا ما عرف معنى من المعاني يخالف تلك التي يرمي اليها الكاتب . فبعض المعاني والالفاظ يصح ان يتخذ فيها اكثر من تفسير واحد او معنى واحد . ولقد كتب (فريدريك انجلز) الى (مارجريت هاركنس) عن هذا فقال لها . (كلما استطاع الكاتب ان يخفي آراءه او خواطره السياسية كلما كانت اقرب الى الوضع الفني . فبلزاك بآرائه الرجعية يفضل زولا كثيراً رغماً عن آرائه الاخيرة الديموقراطية : فبلزاك كان موضع اعجاب ماركس وانجلز . ولقد كان يرثي لتهدم الطبقة العليا في المجتمع وكان نقده مليئاً من مرّ واستهزاء لم يكن

غيظاً عند ما كان يصور الشخصيات الارستوقراطية المعاصرة . تلك الشخصيات التي كان يحبوها بعطفه . بل التي كان اعجابه بها سافراً . وهؤلاء انفسهم كانوا من معارضيه السياسين الذين استطاعوا ان يغلوا مطالب الطبقات الشعبية في الفترة بين عامي ١٨٣٠—١٨٣٦ . وعلى هذا فليس من المحتم انهُ ينبغي في الآية الفنية تحديد الاشخاص في معرض النزاع او غيره من شؤون الاجتماع حتى يتهيأ إعداد الصورة الكاملة عن المجتمع . وهذا ما قد يعرض لهُ الادب كما قد تعرض لهُ الموسيقى من وجهة الفن . على انهُ من المفروض تحديد العواطف والانفعالات التي تدفعنا الى الحركات والاعمال ومن هذا نرى ان الذكاء الحقيقي واستشفاف حجب الغيب يدلان على حيوية التفكير في النفس وهذا ما يستطيع الكاتب تبيانه في ادبه اذا كان موهوباً واذا عرف ان يصل الى ما تهيؤه لهُ افكاره من صور وما يمليه عليه عقله من آراء علمية متزنة

وليست الماركسية في النقد تعني الهدم وانما هي تعني البناء . فالناقد (اليسار) الذي لا يتزود بالكفاية الادبية قد يعمد الى وزن المؤلفات الادبية بموازين ليست مضبوطة . وهذا مصدره قلة التحصيل وللاطلاع على مناهج النزعات الادبية والخلقية . فالناقد ينبغي ان يعرض للادب باعتباره (وسيلة) لا باعتباره (غاية) فالمثل الاعلى للادب الماركسي مثلاً هو (فائدته) التي تعود على هذا المجتمع الكبير . كأن يقرر الوضع الصحيح للفرد والمجموع وحقوق المرأة ورسالة العلم في الحياة وماهية الفلسفة وتعديل النظم الاقتصادية وتعريف الحقوق والواجبات . والالتزامات الخلقية المفروضة في الكتّاب والادباء . واليوم الذي تصل فيه الماركسية الى هذا هو الفترة التي « تتحجر » فيها وتصير مذهباً فلسفياً كالمذاهب المعروفة . أما مميزات المثل الاعلى للادب الماركسي فهي كما ذكرها (جرانفل هكس) في مقال لهُ عن الأزمات في النقد ما يأتي : —

أولاً : ان تكون وظيفة هذا الادب ان يفهم القارئ من طبقة العمال دوره الذي يقوم به في الكفاح الاجتماعي . ثانياً : ان يظهر ذلك الادب بطريقة مباشرة او غير مباشرة نتائج كفاح الطبقات

ثالثاً : اشعار القارئ ان الكاتب يساهم في هذا الضرب من الحياة الاجتماعية التي يعرض اليها

رابعاً : ان يكون الكاتب نفسه في مقدمة طبقة العمال عطفاً وروحاً

ولقد عقد في اغسطس عام ١٩٣٤ مؤتمر الكتّاب الروسيين ونودي فيه بمذهب (الاشتراكية الواقعية) في الادب ولم يكن هذا غير محاولة لتقريب بعض الموضوعات الادبية من الحياة . أما « الفوضيون » الذين يتصوّرون الى حدّ ما أدب المستقبل فلهم ان « يحكموا على نسبة ما وصل اليه الانتاج الادبي في عصور الامبراطورية » وبين فقر الادب في هذه الايام . واذا كان في عرفهم انهُ لم يظهر هنالك أديب يسمو الى تقدمهم او يكون مستحقاً لهُ فهم من أجل هذا يؤملون كثيراً في المستقبل ويعتقدون انهم مقبلون على عصر « مندي » او كناحي قد يوجد فيه طائفة من « المثاليين » .

«والالمانيون» في عرفهم قد وجدوا خير معين في أدب سوفوكليس وشاكسبير « والاشتراكيون الواقعيون » Realist كان لهم تولستوي وأضرابه. على انهُ من الثابت لو ان تولستوي قد عاش في حيز ما يفرضهُ او يحدده هؤلاء لما كان قد كتب فصلاً واحداً وكذلك لو ان (بايرن) و(مور) قد أمكنهما ان يقفا امام (شكسبير) فروضهما لما كان قد خط حرفاً من قصيدة

لقد بدأ الادب الروسي منذ أول هذا العصر ان يسير في وجهتين مختلفتين الاولى وجهة الادب الواقعي والثانية وجهة الادب البرجوازي الكثير (الرومانتيكيات) وقد انتصر الاول بانتصار الماركسية وتهدم الثاني لبعده عن الحياة وقربهِ من الخيال والصنعة والارستقراطية ولقد ظل هذا الاخير منذ نهاية القرن الثامن عشر يسعى للدخول في الحياة ويحاول لكي يجد لهُ تأثيراً فيها فأخفق بعد ما يقرب من المائة سنة بينما الادب «البروليتاري» التقريري قد عرف كيف ينفذ الى صميم الحياة بعد النصف الاخير من القرن التاسع عشر وهو قد بلغ أوج مجده في السنوات التي اعقبت الحرب الكبرى

وقد يقول قائل وما ادعى الاوقات ملاءمة للانتاج الفني ؟ قد يكون في عصري الثورة وما قبل الثورة انتاج ادبي فيهِ حيوية وتجدد. وهذا ما يخالف وقت الثورة نفسه فلا شك فيهِ ان الصور الادبية العالية يحتاج في صنعها الى فراغ وهدوء والكاتب في غضون الثورة محروم منها. فأدب الثورة الفرنسية احتوته خطب (دانتون) ومذكرات (كاميل دمولان) وقصائد (اندريه شينيه) السياسية القليلة التي كتبت قبل ان تنزع رأسه (الحيلوتين). اما أدب الثورة الروسية فقد احتوته كتابات لينين وتروتسكي واشعار الكسندر بلوك (الاثنا عشر)

اما ما قبل الثورة فقد كانت العوامل كلها تدعو لازدهار الافكار. ففي القرن الثامن عشر في فرنسا والقرن التاسع عشر في روسيا لم تكن قوة الادب فيهما مستمدة من الثورة المتوقعة ولكن كانت هنالك ظواهر ملموسة للأدب الراقي الذي يسير بخطى واسعة نحو الكمال ولقد كان للمعاهد العلمية الكثيرة وجهابذة الفكر والادب فضل في هذا الصدد لا ينكر واذا عرضنا للادب (البروليتاري) الذي لازم الثورة الاشتراكية فقد نقول ان الكتاب كانوا يكتبون عن (الواقع) الذي يحيا فيهِ العامل وكانوا كذلك يكتبون عن (البرجوازيه) في أسلوب تميز بالاختصار حتى لكأنهم يطوقون الادب بهذا الغلاف (الرمزي). لقد كان البؤس والفقر والمظالم السياسية موضوعات تولستوي ودستويفسكي وجوركي والقصص التي كتبها هؤلاء جميعاً تنحو نحو النقد الموضوعي. على ان (القصد) عندهم لم يكن واضحاً وضوح (الفن) وتلك ناحية في الاسلوب قد تطبع أدبهم بطابعهِ الخاص. على اننا لا ننسى ان جوركي كتب حقاً عن موضوعات هي كالموضوعات التي عرض لها تولستوي ودستويفسكي واضرابهم وانما كان إيضاح الغاية والقصد ما يجب ان يصل اليه دائماً. ولعل من بعث الاسباب التجديد في أدبهِ انهُ كثيراً ما عدا الوسط الذي يعيش فيهِ ولذلك فقد كتب عن الاقتصاد وحرية المرأة وعدم المبالاة بالعرف الاجتماعي